سينية البحترى
قيمة بلاغية ونقدية

د/ أمينة سليم

بسم الله الرحمن الرحيم

****

الحمد لله الذى شرف الإنسان بأصغريه قلبه ولسانه، وفضله على جميع المخلوقات بنعمتى عقله وبيانه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أرسله ربه رحمة للعالمين، وأنزل عليه القرآن بلسان عربى مبين، وعلى آله وأصحابه، ومن اقتدى بهم إلى يوم الدين.

وبعد

فإن موضوع سينية البحترى، فن من فنون رثاء المدن والممالك الزائلة، قد شغلنا زمناً، لما له من قيمة بلاغية ونقدية، باعتبار أنَّ هذه القصيدة تمثل عيناً من عيون الشعر العربى فى هذا الفن.

لذا استخرنا الله سبحانه وتعالى أن تكون موضوعاً لهذه الدراسة، والله المستعان.

بسم ا لله الرحمن الرحيم

****

سينية البحترى قيمة بلاغية ونقدية

تعتبر سينية البحترى من عيون الرثاء فى الشعر العربى، وقد كانت مناسبتها مقتل الخليفة العباسى المتوكل على الله، ووزيره الفتح بن خاقان، وقد وقعت هذه الحادثة والشاعر ينادم الخليفة ومن غرائب الأمور أن يقتل الخليفة ووزيره فى مؤامرة خطيرة اشترك فيها ولاة العهد.

فرثاه البحترى رثاءاً جميلاً بهذه السينية، وفى هذه القصيدة يقول هذا البيت الخالد:

أكان ولى العهد أضمر غدره فمن عجب أن ولى العهد غادره

فهذه القصيدة يظهر فيها الشاعر وفاءاً شديداً للمقتول وسخطاً شديداً على الذين قتلوه ومنهم ولى العهد[١] .

والبحترى يعد من أكبر الشعراء الذين ظهروا فى القرن الثالث الهجرى، وهو من المجيدين إجادة كبيرة فى مدائحة واعتذارياته، كما يجيد فى غزله، وكان أروع موضوع عنده هو الوصف، فقد أجاد فى وصف القصور والبرك والحيوان وغير ذلك.

---

[١] العصر العباسى الأول صـ٣٥٨ طه حسين

التعريف بعصر الشاعر:

من الأمور التى يعرفها المتخصصون فى مجالات الأدب والنقد، أنَّ الحياة الأدبية والعلمية عند العرب لم تعرف عهداً خصباً بالرجال والأفكار، ومختلف الأمزجة كهذا العهد، لذلك عرف بالعصر الذهبى للأدب لانتشار الترجمة بفضل تشجيع الخلفاء.

ففى صدر الدولة العباسية كان فيها ضروب شتى من التفكير وضروب شتى من البحوث، وقد كان فيها ولوع بالمعرفة، وانصراف إلى العلوم والفنون فى قوة وإيمان، فبينا رجال الدين يبحثون فى القرآن والحديث والفقه والأصول، وبينا علماء العربية يجمعون اللغة، ويدونون النحو، ويستنبطون العروض، إذا بعلماء آخرين ينقبون فى آثار الفرس والسريان واليونان، وينقلون منها إلى العربية الصالح المقبول، وما انقضى عصر الرشيد حتى كانت العلوم اللسانية والشرعية قد دونت، وحتى ألم العرب بكثير من أفكار الأمم الأجنبية وطرقها فى البحث والتحليل.

وهذه الحياة العلمية المتشعبة هى التى أنبتت الجاحظ وسهل بن هارون، وأبا تمام، وابن الرومى، والبحترى وغيرهم من الكتاب والشعراء[1] ، وهذه الحياة العلمية أثرت فى النقد تأثيراً بعيداً لا فى ظواهره فقط ولا فى أشكاله بل فى جوهره وحقيقته، وفى الأمزجة التى يصدر عنها، وفى الثقافة التى ينحدر منها، فالنقد منذ القرن الثالث يقوم على العناصر السابقة والتى دونت فى كتب الأدب والنقد.

---

[1] تاريخ النقد الأدبى صـ١١١ طه إبراهيم بتصرف

تطور فن رثاء المدن والممالك الزائلة

عالج الشعراء فن الرثاء، وأكثروا منه فى شعرهم ويرجع ذلك إلى كثرة حروبهم وأيامهم، وما ينتج عن هذه الحروب من مصائب وفواجع فى فقد عزيز لديهم أو بطل من أبطالهم وقد اشتركت النساء مع الرجال فى الرثاء، وكان للخنساء إحراز قصب السبق فى هذا الفن، فقد رثت أخويها معاوية وصخراً بقصائد خلدت ذكراهما[1] .

وعندما طرد رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود من المدينة المنورة حزن عليهم بعض الشعراء الذين رثوا بنى النضير وبكوا زوال ملكهم.

وشغل المسلمون بالفتوحات وأكثروا من قول الشعر عن هذه الفتوحات التى أظهرت شجاعتهم فى مواجهة العدو وزوال ملكه.

وفى العصر الأموى لم نظفر بكثير من رثاء المدن والممالك الزائلة، ويعود ذلك إلى أنّ المسلمين كانوا فى فتوحاتهم تسقط المدن فى أيديهم، وكان النصر فى ركابهم.

وقد ظهر فى العصر العباس فن رثاء المدن والممالك الزائلة فى إطار جديد، وتطور بشكل واضح ظهر فى رثاء مدينتى بغداد والبصرة وغيرهما من المدن. وتتابع الشعراء فى رثاء المدن والممالك الزائلة إلى أن أصبح فناً قائماً بذاته.

---

[1] رثاء المدن والممالك الزائلة صـ٢٠ د/عبد الرحمن حسين بتصرف

البحترى ٢٠٥ ـ ٢٨٤هـ

هو أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى الطائى البحترى. ولد بمنبج بالشام، ونشأ وتخرج بها، ثم خرج إلى العراق ومدح جماعة من الخلفاء أولهم المتوكل على الله، وخلفاً كثيراً من الأكابر والرؤساء، وأقام ببغداد دهراً طويلاً، ثم عاد إلى الشام، وله أشعار كثيرة ذكر فيها حلب وضواحيها وكان يتغزل بها، وقد روى عنه بعض شعره أبو العباس المبرد وغيره من الكتاب والأدباء.

وكان يقال: لشعر البحترى: سلاسل الذهب، وهو فى الطبقة العليا[١] .

---

[١] ديوانه صـ٦ دار صادر بيروت

سينية البحترى

الأبيات التى صاغها البحترى فى غدر الزمان والمصائب التى حلت به بعد مقتل المتوكل على الله.

١. صُنْتُ نفسى عما يدنس نفسى وترفعتُ عن جدا كُلِّ جبس
٢. وتماسكتُ حين زعزعنى الدهرُ التماساً منه لتعسى وتُنكسى
٣. بُلغُ من صُبابة العيش عندى طفقتها الأيامُ تطفيف بخسِ
٤. وبعيدُ ما بين وارد رفه عَلَلٍ شُربهُ ووارد خِمْسِ
٥. وكأن الزمان أصبح محمو لاً هواه مع الأخس الأخس
٦. واشترائى العراق خُطةَ غَبْنٍ بعد بيعى الشآم بيعة وكْسِ
٧. ولقد رابنى نبو ابن عمى بعد لين من جانبيه وأنس
٨. وإذا ما جُفيتُ كنتُ حرياً أن أُرى غَيرَ مصبح حيثُ أُمسِ

الأفكار الرئيسية فى هذه الأبيات:

* ترفع الشاعر عن العطاء الدنئ بصيانة نفسه.
* شكوى الزمان وما وصل إليه الشاعر من فقر وذل.
* مقارنته لحياته أيام الخليفة المتوكل على الله، وبعد مقتله.
* التعريض بمن قتلوا الخليفة.
* لومة وتأنيب ضميره له وعدم تقديره للأمور، لتركه بلاد الشام موطنه، ورحيله إلى العراق سعياً وراء الكسب المادى والمعنوى.
* قلق الشاعر وفزعه من نبذ ولى العهد له، بعد ما كان مفضلاً لدى الخليفة وأبنائه.
* رحيله إثر إحساسه بالجفوة من ولاة العهد.

هذه الأبيات تمثل مجموعة المشاعر التى قاسى منها الشاعر وتعرض بسببها للإيلام والحزن واللوعة، بعد مقتل الخليفة مما جعله يبث فيها همومه وأحاسيسه وأفكاره.

البلاغة والنقد:

يطالعنا الشاعر باستهلال رائع، يحمل كل معانى الاعتزاز بالنفس، والترفع عن أى عطاء دنئ، ففى قوله: "صُنت نفسى" صورة خيالية استعارية، حيث شبه نفسه بشئ ثمين من خصائصه أن يُصان، أو بثوب من خصائصه ألا يصاب بدنس، أو أى شئ يُخشى منه، وحذفه وأبقى على صفة من صفاته على سبيل الاستعارة المكنية فى كلمة "نفسى" والفعل "صُنت" قرينته التخييلية، ومما يزيد فى جمال هذه الاستعارة أنه شبه المعنوى بالحسى، مما أضفى وضوحاً على الاستعارة، وزاد فى تمكينها فى المعنى، وفى قوله "ترفعت عن جدا كل جبس" كناية عن اعتزاز الشاعر بنفسه، أما فى تكرار كلمة "نفسى" فهذا توكيد لفظى ومعنوى قوى حكم الجملة وأكد احترام الشاعر لنفسه، كما يوجد بين "نفسى وجبسى" سجع، وبين "صُنت وترفعت" مراعاة نظير وسجع، وبين "الصيانة والدنس" طباق، وهناك طباق خفى فى قوله: "ترفعت عن جدا كل جبسى" ففى الرفعة والترفع علو، وفى العطاء الدنئ دنو، وبين العلو والدنو يقع الطباق الخفى. وهذه الكلمة تحمل فى طياتها الاعتزاز والرفعة، والبيت كله كناية عن عفة النفس.

وتظهر عناية الشاعر بالصور الخيالية والمحسنات البديعية فى غير تكلف، فجاءت مطبوعة، كما نجد أن الطباق كان فطرياً سهلاً، قريب التناول.

وفى قوله: "تماسكت حين زعزعنى الدهر" نجد فى هذه العبارة طباقا بين "تماسكت وزعزعنى"والطباق من المحسنات البديعية يوضح قيمة المعنى ويزيد فى حسنه، كما توجد استعارة فى قوله: "زغزعنى الدهر" حيث شبه الدهر بالريح التى من خصائصها أن تقتلع الأشياء من جذورها وتزعزها، وحذف الريح وأتى على صفة من صفاته على سبيل الاستعارة المكنية فى كلمة "الدهر" والفعل "زعزع" تخييل للمكنية، ويمكن أن يكون فى "زعزعنى الدهر" مجاز عقلى، علاقته الزمانية، ويصح أن يكون فى هذه العبارة كناية عن شقائه وتعاسته وحلول المصائب عليه.

ويمكن أن تكون استعارة تصريحية حيث شبه اقتلاعه من النعيم إلى الشقاء بالزعزعة، وحذف المشبه وأبقى على صفة من صفاته على سبيل الاستعارة التصريحية، وفي قوله: "تكسى" عودة الفقر له والشقاء والتعاسة مرة أخرى، وفى قوله: "التماساً" إى إمعاناً فى ذلى وشقوتى، تمهيداً لاقتلاعى من حياة النعيم والرفاهية.

وفى قوله: "تعسى ونكسى" مراعاة نظير وسجع، وكما نرى تعددت النكات البلاغية فى موضع واحد، مما أظهر براعة الشاعر، خصوصاً السجع الذى جاء عفو الخاطر، دون تكلف فأضاف لحناً وإيقاعاً موسيقياً ذا نغم جميل.

أما فى قوله: "بُلغُ من صُبابة العيش عندى" فهو كناية عن بخل الأيام وشحها بأقل القليل من الطعام الذى يقيم أوده به من الهلاك فزادت فى بخسه، وفى قوله: "صُبابه" وردت فى قول الرسول عليه الصلاة والسلام، حيث كان الرسول والصحابة رضوان الله عليهم، تكفيهم صُبابةُ من الطعام، أو صُبابةُ من الماء للوضوء.

وفى "طففتها الأيام" استعارة مكنية حيث شبه الأيام بالتاجر الذى من خصائصه أن يزيد وينقص فى الكيل وحذف المشبه به وأتى على صفه من صفاته على سبيل الاستعارة المكنية فى "الأيام" والفعل "طفف" قرينة تخييل للمكنية، وفى لفطه "طفف" مشترك لفظى يفيد الزيادة والنقصان: ومنه قوله تعالى:﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾.
فمراد الشاعر هنا أن التطفيف كان بالنقصان بدليل قوله تطفيف بخسى. والبيت كله كناية عما آل إليه الشاعر من فقر وحاجة، ونلمح أن الشاعر استخدم ألفاظاً من مصطلحات الفقه فى قوله "بخس"، أما فى قوله:

وبعيد ما بين وارد رفه عَلَلٍ شُربُهُ، ووارد خِمْسِ

هذا البيت يوجد فيه مقابلة معنوية وطباق بين الشطرين، وفى قوله: وارد رفه: كناية عن الرفاهية ورغد العيش، أما فى الشطر الثانى فى قوله: "ووارد خمس" كناية عن الفقر والذل، وهو ما آل إليه حاله بعد اغتيال الخليفة، وفيه تشبيه تمثيلى حيث شبه

حاله بحال الإبل العطاش التى ترد الماء كل خمسة أيام مرة وفى كلمة "بعيد" دلالة نفسية ومحاولة المقارنة والمفاضلة بين الحالين، فالبون شاسع والفرق كبير بين اللذة والألم والنعيم والحرمان، وفى قوله:

وكأن الزمان أصبح محمو لا هواه مع الأخس الأخس

استعمل الشاعر كأن هنا للظن وليست للتشبيه فيقول: أظن أن الزمان أصبح يميل مع هوى الأخساء اللئام وهو يشير بطرف خفى إلى هؤلاء الأتراك الذين أغروا ولاة العهد باغتيال الخليفة، أما الشرفاء فلا نصيب لهم ولا حظ ، سوى الشقاء والألم. والبيت كله كناية عن رفعة الأخساء اللئام بدليل تكرار لفظة "الأخس الأخسِ". وفى قوله : "واشترائى العراق بعد بيعى الشأم" ، يوجد بين العراق والشأم مراعاة نظير، وبين "غبن ووكس" مراعاة نظير أيضاً وفى قوله: اشترائى وبيعى طباق، ويوجد أيضاً استعارة مكنية فى اشترائى العراق حيث شبه العراق بسلعة تباع وتشترى فحذف المشبه به وأبقى على صفة من صفاته على سبيل الاستعارة المكنية، وفى عبارة بيعى الشأم استعارة مكنية حيث شبه الشآم بسلعة تباع وتشترى حذف المشبه به وأبقى على صفة من صفاته على سبيل الاستعارة المكنية، وبين "بيعى وبيعة" جناس إشتقاق، وبين "خطة غبن وبيعة وكس" ترادف معنوى.

فإذا تأملنا جيداً هاتين الاستعارتين نجد أنهما تمثلان دلالات نفسية عميقة لدى الشاعر خصوصاً أن البيع والشراء لم يكن فى أشياء مادية، وإنما وقع فى أشياء معنوية وذكريات سعيدة وأخرى تعيسة مر بها الشاعر كما زاد من قيمتها البلاغية وقوعها فى دائرة البديع، مما أكد المعنى الذى يسعى وراءه، كما أن بضاعته وسلعته التى يشتريها ويبيعها ليست كما يعهده الناس من أشياء مادية، إنما هى مسقط رأسه ومرتع صباه وشبابه، والأخرى مكان عاش فى نعيمه وتفيأ ظلاله الوارفة، ورزء فيه بمقتل الخليفة.

فى هذا البيت ظهرت الصور الخيالية والألوان البديعية بشكل واضح، مما أسهم فى علو القيمة الفنية التى تحوى صوراً جزئية متعددة، ويتبادر إلى الذهن سؤال: هل فى تزاحم هذه الصور وخصوصاً ما اجتمع منها فى مكان واحد عيب؟.

نجد السعد فى مطوله يقول: "تحقيق كيفية هذا المجاز وبيانه من أى نوع لم يحمْ أحد حوله"[١] .

أما عبد الحكيم فيرى فيها وجوها من الاحتمالات قد تكون أقرب من غيره أو أقل إغرابا منها، وقد يراد منها تلك المعانى بطريق الكناية، وقد تراد بطريق أنها من مستتبعات التراكيب كما تراد بطريق المجاز[٢] .

بينما ذهب صاحب الكشاف إلى أنَّ الأداة ينسلخ عنها المعنى الحقيقى رأساً حين تنقل إلى التعبير المجازى[٣] .

كل هذه التساؤلات والرد عليها عن مدى تحقق المجاز فى الاستفهام، وتعدد غرضه فى موضع واحد مجتمع.

وأقول إنَّ مجرد نقل المعانى أو تعدد الصور فى مكان واحد مجتمع يدخلها فى باب التعبير المجازى، لما نعلمه من أنَّ المعنى المجازى هو نقل المعنى إلى معنى آخر، فهو من المجاز اللغوى، وتعدد الصور يعطى ثراءاً وقيمة بلاغية تقوى المعنى الذى سعى إليه الشاعر، ويذهب بالنفس كل مذهب.

ووزان سؤالنا عن تزاحم الصور وتعددها فى مكان واحد، وزان تعدد الأغراض فى موضع واحد من مواضع الاستفهام.

---

[١] المطول صـ ٢٣٥ لسعد الدين التفتازانى

[٢] حاشية الشهاب جـ٤ صـ٣٧

[٣] الكشاف جـ٣ صـ٤، جـ٢ صـ١١٠،١١١

وانظر الاشارات والتنبيهات صـ١١٦ تحقيق د/ عبد القادر حسين

كما أستطيع أن أقول: إنَّ المجاز من قبيل الاتساع والتوكيد والتشبيه، وهذه النظرة أكدها "ابن جنى"[١] فى تناوله للمجاز، وبهذا لا يقع تعارض بين الأغراض البلاغية فى الشاهد الواحد، وهذا الرأى ما نرجحه ونميل إليه والله أعلم[٢] .

وقوله: "ولقد رابنى نبو ابن عمى".

استهل الشاعر هذا البيت بواو القسم ولامه وقد، وكلها مؤكدات، تؤكد تحقيق الفعل التى دخلت عليه، والفعل "رابنى" يؤكد أنَّ ما افزعه وأقلقه ما تحقق منه، هو نبذ ولى العهد له، ونجد فى كلمة "نبو وأنس" طباق، وبين "نبو ولين" طباق، وبين "لين وأنس" مراعاة نظير.

وقد أختار الشاعر كلمة رابنى أى أفزعنى ولم يقل أخافنى لأنها أبلغ خصوصاً مع السياق الذى أختاره الشاعر فى كلمة نبو، لأن الفزع أقوى وأشد من الخوف.

أما قوله: "وإذا ما جفيت" أى ما ظهرت الجفوة وتيقنت منها، كان لزاماً علىَّ فى هذه الحال أن أغادر المكان بلا تردد بحيث لا أرى مصبحاً فى مكان أمسيت فيه، أو ممسياً فى مكان أصبحت فيه.

واستعمال الشاعر لكلمة "جُفيت" تجعلنا نحس معه بخشونة وغلظة، وهى فى الوقت نفسه كناية عن البغض والكراهية التى تعرض لها، ونجد بين "مصبح وأمسى" طباق، ومراعاة نظير والبيت كله كناية عن عزة نفس الشاعر.

هذا والأبيات كلها كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ويسلم بعضها إلى بعض فى ترابط تام وغرض واحد ووحدة موضوعية واحدة، وقد عكست بصدق نفسية الشاعر، من ألم وندم، وعزة نفس، وفخر وعفة ومحاولة التماسك فى الشدائد.

---

[١] الخصائص جـ٢ صـ٤٦١

[٢] رسالة دكتوراه صـ١٠٥ د/ أمينة سليم

والأبيات التى صاغها الشاعر فى وصفه الرحلة والراحلة وإثارة الذكريات، التى جعلته يتذكر العروش السابقة التى زالت، وهى فى رثاء المدن والممالك الزائلة.

فيقول فى هذه الأبيات:

٩. حضرتْ رحلى الهمومُ فوجهـ ت إلى أبيض المدائن عنسِ

١٠. أتسلى عن الهموم وآسى لمحل من آل ساسان درسِ

١١. ذكرتنيهمُ الخطوب التوالى ولقد تذكر الخطوبُ وتنسيِ

١٢. وهم خافضون فى ظل عال مشرفٍ يحْسِرُ العيون ويُخسِ

١٣. حِللٌ لم تكنْ كأطلال سُعدى فى قفار من البسابس ملسِ

١٤. ومساعٍ، لولا المحاباة منى لم تطقها مسعاةُ عنس وعبسِ

١٥. نقل الدهرُ عهدهن من الجد ة حتى غدون أنضاء لبسِ

١٦. فكأن الجرماز من عدم الأنس وإخلاقه ، بنيةُ رِمْسِ

١٧. لو تراه علمت أن الليالى جعلت فيه مأتماً، بعد عرسِ

١٨. وهو ينبيك عن عجائبَ قومٍ لا يشابُ البيان فيهم بلبسِ

البلاغة والنقد:

يقول الشاعر: "حضرت رحلى الهموم" أى تجمعت علىَّ حتى انتقلت إلى رحلى، فنجد هنا علاقة من علاقات المجاز المرسل، وهى اللازمية فالهموم لم تكن فى رحلة فقط، وإنما كانت فى نفسه يعانى منها، فانتقلت منه إلى رحله، لأن ارتباطه برحله كان وثيقاً، بمعنى أن الهموم لازمته وسيطرت عليه وعلى أفكاره حتى ملأت أداته فى السير، ثم جاءت كلمة "فوجهت" ودلالتها اللغوية التى تعبر عن مدى اعتزازه بنفسه، فكان تعبيره بالفاء التى تفيد الترتيب مع التعقيب ، أنه وجه ناقته إلى مدائن كسرى أنو شروان، يلتمس العزاء عما ألم به بين تلك الآثار القديمة كى يأخذ العبر، ويتأسى لهذه الدولة، التى تذكره بمجد الساسانيين الزائل.

وقوله: "بين الهموم وآسى" تشابه، وبين "أتسلى وآسى" مراعاة نظير وسجع، وبين "رحلى وعنسى" تكرار معنوى، أكد مراد الشاعر من إصراره على الرحيل، كما يوجد بين "أسى ودرسى" سجع.

هذا بالإضافة إلى أن حرف السين تكرر بشكل واضح فى هذا البيت مما يجعلنا نشعر أن البحترى فى ذروة المعاناة والألم حيث استخدم هذا الحرف وهو من الحروف المهموسة التى تؤثر فى النفس تأثيراً قوياً، وله وقع موسيقى فى الآذن، يطرب الإنسان حين سماعه.

وفى قوله: "ذكرتنيهمُ الخطوب التوالى" يقصد به ما حدث للخليفة المتوكل واستيلاء ولاة العهد على الحكم، ونبذ الشاعر، أثر فى نفسه تأثيراً شديداً، مما جعله يجسد الخطوب فى صورة خيالية، حيث شبه الخطوب بإنسان من خصائصه أن يذكر وينسى، وحذف المشبه به وأبقى على صفة من صفاته على سبيل الاستعارة المكنية، وتذكر وتنسى تخييل للمكنية وبين تذكر وتنسى طباق، وبين "ذكرتنيهم وتذكر" جناس اشتقاق، وتكرار لفظى ومعنوى.

وفى قوله: "الخطوب" أكد المعنى، والخطوب التوالى كناية عن كثرة المصائب وتلاحق الهموم.

ثم يحدثنا الشاعر عن حضارة الأكاسرة وملكهم وقصورهم التى يعيشون فيها فى رفاهية ودعة، تطل على مساحات واسعة لا يستطيع البصر أن يدرك نهايتها إلا بعد أن يحسر عينيه ثم يردها كليلة متعبة خائبة، ففى قوله: "وهم خافضون فى ظل عال" فخافضون مشترك لفظى يحمل المعنى وضده، أى عال ومنخفض، وبين "عال ومشرف" ترادف معنوى، وبين "يحسر ويخسى" مراعاة نظير، والبيت كله كناية عن سعة العيش ورغده لهؤلاء القوم، وبين البسابس والقفار ومُلس" مراعاة نظير وعلاقة تشابه.

وكعادة الشاعر يذكر لنا أخباراً متلاحقة مترابطة فى وحدة موضوعية، فيقول: إن قصور الأكاسرة لم تكن أطلالا دارسة كأطلال سُعدى وغيرها من أطلال القفار الموجودة فى الصحراء الرملية، ثم يردفها فى رباط متين فيقول: لولا أننى عربى وميلى ومحاباتى للعرب، لفضلت حضارة الفرس على أعلى القبائل العربية "عنس وعبس" لأنهم يتمتعون وينعمون فى مكارم عالية.

ويوجد مراعاة نظير بين "قحطان وعدنان"[1] وبين اليمن والجزيرة العربية، وجناس ناقص بين "عنس وعبس" وبين "مساع ومسعاة" وبين "عِنس وعبس" سجع. والشطر الأول كناية عن النعيم، والشطر الثانى كناية عن مجدهم وعظم حضارتهم.

وفى قوله: "تقل الدهر عهدهن من الجدة" يخبرنا بتحول عهد هؤلاء الأكاسرة من الجدة إلى القدم والبلى وهذه طبيعة الأمور، ثم يردف هذه الفكرة بقوله: إن القصر أصبح خلواً من أصحابه فكأنه قبر، بعد أن كان حافلاً بالناس آهلاً بالسادة، فتبدلت الحال من فرح وسرور إلى سكون وحزن يشبه سكون المأتم.

ثم يقول الشاعر: إن هذا القصر له من عجائب الصنعة بحيث لا يستطيع أحد أن يقيم مثله، وما زال يتمتع بهيبة قوية.

---

[1] قبيلة قحطانية من اليمن تسمى عنس، قبيلة عدنانية من نجد وتسمى عبس بالجزيرة العربية

وفى قوله:

"نقل الدهر عهدهن من الجدة" مجاز عقلى علاقته الزمانية، ونلمح بين الدهر والعهد علاقة تلازم حيث أن العهد جزء من الدهر .

وفى قوله:

"حتى غدون أنضاء لبس" كناية عن قدم وبلى هذه القصور، فإذا نظر إليها أحد فلا يكاد يتبين حقيقتها.

وبين "الجدة وأنضاء" طباق، والجدة كناية عن قوة هذه الدولة، وأنضاء كناية عن زوال ملكها وملوكها.

وفى قوله: "أنضاء لبس" تشبيه محذوف الأداة، حيث شبه حضارة الفرس فى قدم عهدها بالملابس القديمة، التى تحتفظ بهيئتها وشكلها، ونلمح بين شطرى البيت مقابلة والبيت كناية عن التحسر والألم على ما أصاب هذه الدولة.

ثم يستهل الشاعر هذا البيت بتشبيه القصر بالقبر لخلوه من أصحابه، وبين "الأنس والرمس" شبه طباق وسجع وفى قوله "علمت أن الليالى جعلت فيه مأتماً بعد عرس" مجاز عقلى، علاقته الزمانية، وبين "مأتم وعرس" طباق، والعرس كناية عن وجود الملوك فيه، والمأتم كناية عن خلوه من الناس.

وهناك استعارة لطيفة نجح فى تصويرها فى قوله: "وهوينبيك عن عجائب قوم" أى يخبرك، والجماد لا يخبر وإنما شبه القصر بإنسان من خصائصه الإخبار، وحذف المشبه به وأبقى على صفة من صفاته على سبيل الاستعارة المكنية، والفعل ينبيك تخييل للمكنية، وفى قوله: "يشاب ولبس" شبه ترادف معنوى، "ولايشاب والبيان" بينهما ترابط معنوى، وبين "البيان واللبس" شبه طباق، والبيت كله كناية عن حضارة هذه الدولة.

والأبيات التي صاغها الشاعر في وصف المعركة التي دارت بين الفرس والروم، وقد أتقنها الفنان في إبداع فني رائع.

يقول البحتري:

١٩. فإذا ما رأيت صورة أنطا كية ارتعت بين روم وفرس

٢٠. والمنايا مواثل، وأنوشر وان يزجي الصفوف تحت الدرفس

٢١. في اخضرار من اللباس على أَصـ ـفر يختال في صبيغه ورس

٢٢. وعراك الرجال بين يديه في خفوت منهم وإغماض جرس

٢٣. من مشيح يهوى بعامل رمح ومليح ، من السنان بتُرس

٢٤. تصف العين أنهم جد أحيا ء لهم بينهم اشارة خرس

٢٥. يغتلي فيهم ارتيابي حتى تتقراهم يداى بلمس

البلاغة والنقد:

يقول الشاعر: "فإذا ما رأيت صورة أنطاكية"

يصف الشاعر معركة أنطاكية وما حدث فيها بين الفرس والروم، نقلاً عن العمل الفنى الذى أتقنهُ الفنان ببراعة تامة، حتى إذا رأيت هذا العمل الفني تأكدت أنك فى معركة حقيقية، ويعتريك الفزع والخوف من هول المعركة، وما وقع بين صفوف الجند.

وفى قوله: "صورة أنطاكية" كناية عن المعركة التى دارت بين الفرس والروم، وصورت على إيوان كسرى، وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ آلم غُلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون، فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذٍ يفرح المؤمنون﴾[1] والفرس والروم بينهما مراعاة نظير.

كما يصف لنا الحركة الدائبة من أنو شروان وهو يستحث جنوده على النصر أو الموت فى سبيل الوطن.

من أجل هذا استهل الشاعر هذا البيت بقوله: "والمنايا مواثل" وهو تشبيه محذوف الوجه والأداة يوضح لنا كثرة عدد القتلى، وفيه إبراز وتجسيد للمعنوى.

وفى صورة أخرى يصف الشاعر ملك الفرس وهو يمتطى صهوة جواده فى خيلاء وغرور وصلف مرتدياً ملابسه الخضراء موشحاً بدرعه الذهبى الذى يغطيه، متحركاً يميناً وشمالاً بين صفوف الجند لرفع روحهم المعنوية فى سكون تام ودون أى صوت.

ونجد بين الأخضر والأصفر مراعاة نظير، وبين الأصفر وصبيغه ورسى ترادف معنوى، وفى قوله: "وعراك الرجال بين يديه" كناية عن الحركة، وفى قوله:

---

[1] سورة الروم ١ ـ ٤

"فى خفوت منهم وإغماض جرس" ترادف معنوى، وكناية عن الصمت والسكون ونلمح بين شطرى البيت طباقاً.

وفى صورة أخرى يجسد الشاعر لنا جزءاً من المعركة التى دارت، ويوضح لنا مشهداً آخر من مبارزة الأبطال، فهذا مهاجم برمحه وآخر يتلقى ضرب الأسنة بترسه، كما يصف أن العين لا تخطئ حين تظن أن هؤلاء الجند، وهذه الجياد وأشلاء القتلى والجرحى، أنهم جد أحياء، لكنهم فى حقيقة الأمر تجسيد لابداع الفنان الذى بلغ من صدقه الفنى ما يجعلنا لا نشك فى أنها معركة حقيقية، لكن إشاراتهم صامتة كأنها إشارة خرس، فيتعاظم شك الشاعر بقوة التعبير واتقان التصوير، حتى هم أن يتلمس بيديه تلك الصور، ارتياعاً منه وانبهاراً بها.

يوجد طباق بين مشيح ومليح، وبين السنان والترس والرمح تشابه، إشارة الخرس تشبيه محذوف الوجه والأداة والمشبه، والتقدير لهم بينهم إشارة كإشارة خرس.

ويمكن أن يكون بين شطرى البيت شبه طباق، والبيت الأخير الذى يقول فيه: "يختلى فيهم ارتيابى" كناية عن صدق الفنان.

ونستطيع أن نقول إن هذه الأبيات تحقق فيها الصدق الفنى لتصوير الفنان والشاعر معاً، حيث اهتم كل منهما بإبراز الألوان والحركات والسكون والتجسيد، وهذا مما يجعلنا نؤكد على فكرة "أرسطو" الذى قال فيها: "إن الفنون كنظرية الأوانى المستطرقة" .

دكتورة أمينة سليم
مدرس البلاغة والنقد